تعريف بالكتاب

هيدا جابلر فتـــاة جميـلة ذكية متعلمة مدللة ، ولكنها كمـا جاء فى الحوار التالى « تعسة حقود فاشلة صارخة الأنانية » فلم يكن أحد من الملتفين بها لجمالها وذكائها يتقدم لخطبتها ، اشفاقا من متاعب الحيـاة الزوجية مع فتاة مثلها كثيرة المطالب قليلة الوفاء .

وناهزت الثلاثين ولم يخطبها أحد يرضاها وترضـاه ، فقبلت أول خطيب يناسبها من الوجهة الاجتماعية ، لأنه طبيب موعود بالترقية الى كرسى الأستاذية ، وفى وسـعه اذا ارتقى اليه أن يضمن لهـا المعيشة فى مسكن جميل والرحلة الى بلاد بعيدة والحرية فى الحياة الاجتماعية ، ولكنه لم يكن يناسبها بمزاجه ومظهره ، لأنه كان وخيم الطبع ثقيل الظل قليل الحركة ، تشغله دروسه عن حياة اللهو والمتعة التى تحبها هيدا . ولا يحسن أن يحيا تلك الحياة ولو فرغ لها بعض وقته ، وقلما كان يفرغ لها فى وقت من الأوقات ثم تفاجأ هيـدا بخيبة الأمل فى ترقية زوجها وظهور مزاحم له كان من عشاقها ، ثم تعرف الى فتاة دميمة ضـئيلة ولكنها أسعدته بالعيشة البيتية الراضية واعانته على الابداع فى عمله ، فألف كتابه الأول ثم أردفه بكتاب آخر أبدع منه وأحرى أن يشهره فوق اشتهاره بباكورة تأليفه ، وقد أخذه معه ذات ليلة الى منزل صـديقه چورج تيسمان ـ زوج هيدا ـ ليقرأ بعض فصـوله فى السهرة ومعـه صاحبته الطيبة الملهمة ، غريمة هيدا ومنافستها على المؤلف النـاجح وعشيقها الأول ـ واسمه ايليرت لوفبيرج .

وقد علمت هيدا من سيرة زوجها أنه كان على صلة بالفتاة الطيبة الملهمة (ثى الفستد) قبل أن يهجرها ليخطب هيدا لأنها أجمل وأرشق

منها وأقدر على « الاضاءة » فى الحياة الاجتماعية ، فمز عليها أن تستطيع هذه « المخلوقة الضئيلة » ما لم تستطعه هى من الهام صاحبها ومعونته على النجاح فى عمله ، فحقدت عليها وأجمعت النية أن تكيد لها وان تفسد ما بينها وبين المؤلف الناجح الذى تحول عن حبها الى حب « فأرة مزدراة فى عينيها » .

واتفق عند وصول « الفستد » الى مسكن تيسمان أن لقيه متأهبا للخروج مع صديقه القاضى براك لزيارة صديق لهما أعزب يحيى فى منزله سهرة خاصة ، فدعاه تيسمان لمصاحبته الى تلك السهرة ، وتردد « الفستد » فى قبول الدعوة ولكنه قبلها بعد اغراء « هيدا » له بالذهاب اليها لأنها أرادت أن تغتنم فرصة الانفراد « بالمخلوقة الزرية » لتدبير مكيدتها . وكان تيسمان أول العائدين من السهرة ، وعاد بعده «الفستد» ولكنه كان قد أضاع فى الطريق مخطوطة كتابه الجديد ، فادعى عند عودته الى هيدا أنه أتلفها ثم اعترف لها بضياعها ، وعلم تيسمان بالخبر فبحث عن الكتاب المخطوط حيث ظن أنه سقط من صاحبه فى دار مريبة عرجا عليها بعد السهرة « المعربدة » بمسكن صديقهما الأعزب .

الا أن « هيدا » لم تشأ أن ترد المخطوطة الى المؤلف الناجح ، بل شجعته على قتل نفسه قنوطا وغما حين فاتحها بنيته الأليمة ، وقدمت له هدية « أخيرة » تعينه على انجاز نيته على « نحو جميل » ... وهى مسدس نفيس من مسدسين اثنين ورثتهما عن أبيها القائد المعدم ولم تبق لها بقية غيرهما من ميراثه القليل .

وعمدت هيدا الى المخطوط فقذفت بها فى النار ، وقتل الفستد فتولى التحقيق فى أسباب مقتله صديق الأسرة القاضى براك الذى كان معهم فى السهرة المعربدة ، وكان براك يعشق « هيدا » ويغازلها فتصده عنها ولا تيئسه من مراجعتها . فلما كشف التحقيق فى أمر المسدس عن دسيسة « هيدا » أراد القاضى أن يستخدم هذا السر لاخضاع مشوقته النافرة ، ولكنها كانت قد سئمت الحياة وعلمت انها ستواجه

معيشة الحسرة والكفاف بعد خيبة زوجها ومصرع عشيقها وغلبة الوسواس من أثر الجريمة على وجدانها فتركت للمسدس الآخر أن يؤدى عمله الوحيد بعد فعلة « المسدس » الذى ظل يهددها من مكانه فى مكتب التحقيق ... فأطلقته على رأسها وذهبت غير مأسوف عليها .

هذه هى الخطوط البارزة فى قصة « هيدا جابلر » المشهورة . وهى « شخص مسرحى » من الشخوص النسوية فى روايات « ابسن » الكثيرة ، ولكنها أشهر هذه الشخوص وألصقها باسمه ونماذج فنه ، تذكر هيدا كلما ذكر ابسن كما يذكر هملت كلما ذكر شكسبير على حد قول الأديبة الدنمركية «ايفالى جالينى» فيما يلى من حوار . وسر هذا التلازم بين اسم ابسن واسم هيدا انها تمثل « خصوصيات » ابسن فى تصوير نسائه أو تصوير المرأة الشمالية فى زمنه على العموم ، فلم يجتمع لاحدى بطلاته كل ما اجتمع لهذه « البطلة » من غرائب التمرد والجموح والتناقض بينها وبين العرف وبين المأثور من السجايا النسوية ، مع الصدق البالغ فى تصوير الطبيعة على حقيقتها ، كلما انحرفت الطبيعة هذا الانحراف .

وقد قيل فى التعريف بفضل ابسن على فن التمثيل الحديث أنه نقل الحياة الى المسرح ، وهو قول صادق لا مبالغة فيه على الاجمال .

ولكن المؤلفين المتقدمين قد نقلوا الحياة الى مسارحهم وأقاموا دعائم المسارح كلها على هذا الأساس الذى لا قوام لمسرح من المسارح بغيره .. وماذا صنع شعراء اليونان والأسبان والفرنسيين والانجليز منذ القرن الخامس قبل الميلاد الى ما قبل مولد ابسن فى موطنه ببلاد النرويج ؟ .. انهم لم يصنعوا شيئا غير نقل الحياة الى المسرح وتقريب المسرح الى الحياة ، ولولا ذلك لما كان للمسرح وجود ولا استحب الناس أن ينظروا الى مثال معروض عليه . واسم التمثيل عندنا باللغة العربية من وحى البداهة التى تدل على معنى هذا الفن عند المشتغلين به والناظرين اليه ، وكلمات الفلاسفة الاغريق تعريفا بهذا الفن دليل على الموافقة بين وحى

البديهة وعمل التفكير الفلسفى القديم فى فهم رسالة المسرح ، لأنهم قالوا فى التعريف بالتمثيل انه « محاكاة الحياة » . لكن الكلمة التى قيلت عن فضل « ابسن » على المسرح لا تزال صادقة مقبولة ، مع قليل من التفرقة بين مسرح ومسرح ، وحياة وحياة .

لقد كان المؤلفون ، أو أكثر المؤلفين ، قبل أبسن ينقلون الحياة الى المسرح ولا يشبهون ابسن مع ذلك كل الشبه فى الأصل الذى ينقلون عنه ولا فى الصورة التى ينقلونها .

كانوا ينقلون حياة البطولة ، أو ينقلون حياة الهزل والسخرية ، أو ينقلون الحياة التى نحبها ونتمناها ، أو الحياة التى نعطف عليها ونستجيب لدعوتها ، وكانوا يصدقون النقل عن شعورنا ـ نحن المتفرجين فيصورون لنا الحياة كما تروعنا وتروقنا أو كما تضحكنا وتسلينا ، أو كما تعلمنا وتبلغ منا مبلغ الموعظة والاعتبار ، وكانوا يعطوننا صورة نفوسنا حين نجد وحين نضحك ، قبل أن يعطونا الصورة الظاهرة والخفية فى نفوس أولئك المخلوقات المعروضة على مسارح التمثيل .

ولكن الجديد فى الكاتب النرويجى أنه التفت الى شخوص المسرح قبل أن يلتفت الينا ، فليس ابطاله ولا بطلاته ممن نحبهم ونعجب بهم ولا هم من الذين نترقبهم ونتمنى لقاءهم ، ولكنهم مخلوقات غريبة تطالعنا أحيانا كأنها تقتحم الطريق الى قلوبنا ومشاعرنا ، وكأنها تعيش بحقها فى الوجود ولا تعيش بحقنا نحن فى الرضى عنها والعطف عليها وشفاعتها الكبرى أنها ـ على غرابتها ـ موجودة تذهب وتجىء فى دنيانا ولا نحب ان نلتفت اليها ، وانما كان فضل المؤلف أنه أرانا ما ينبغى أن نراه وان كنا لا نحب أن نلتفت اليه .

ويندر فى مسرح ابسن أن ترى «الشخصية المحبوبة» التى يرضيك أن تلقاها فى حياتك ، بل يندر فى هذا المسرح أن تلقى « الشخصية المظلومة » التى تود أن تنصفها من ظلمها أو تود أن تقتص لها ممن جنى عليها ، فانك كلما هممت بالقاء الجناية على المسئول عنها فى وهمك وجدته

ضحية مظلومة كمن جنت عليه ، ولا يختلف شـــأن المجتمع كله فى هذه الخصلة عن شأن هذا البطل أو هذه البطلة من شخوص الرواية ، فان المجتمع كله قد يلقى التبعة ـ آخـــر الأمر ـ على الطبيعة البشرية ، أو على الطبيعة الأبدية كلها بما اشتملت عليه من أرض وسماء ومن حى وجماد .

ولم يكتب ابسن قط للعبرة والموعظة أو لتلقين الدروس فى عواقب الخير والشر وذرائع الاصلاح والتأديب ، ولكنه يصدق النقل عن الواقع فيعطينا كل ما يعطيه الواقع من أسباب الاعتبار والاتعاظ وقواعد الأدب والصـــلاح .

وهذه « هيدا جابلر » أغرب شخوصه المنحرفة ، بل أغرب غيلانه المقوتة ، لا تستعصى على طالب العظة اذا أرادها وأراد أن يفيد منهـــا للمجتمع الانسانى ثمرة نافعة وراء العلم بالواقع من طريق الفن الجميل .

ان « هيدا » مثل للأنانية ـ الضائعة بين المدللين والمضللين ،وان هذه « الأنانيـــة » المضللة مثل للفساد الذى يجنيه التدليل ويغـــذيه الغرور بالوجه الجميل دون الخلق الجميل ثم تتفتح له مسالك الشر مع البطالة والترفع عن شواغل الوقت بغير اللهو والمتاع القريب ، وقد توصف هذه الأنانية المضللة بالطمع الموبق والشراهة الجامحة ، ولكنها فى حقيقتها داء من أدواء « القناعة » بالجهد اليسير الهين والنفور من الجهد الدائب الحثيث ، فلا تنقاد له طبيعة تتعود العمل وتصبر على الدأب ، وانمـــا تنقاد له كل طبيعة تعجز عن العمل والدأب فتقنع باللهو السهل والفراغ العقيم .

يقول بريزون فى فاتحـــة الحوار « ان ابسن كان يعرف من دخـــائل النساء أكثر مما يعرفه أى رجل يدعى المعرفة بهن ... ومن المؤكد انه لم يكن يهتم بشئونهن من أجل حالتهن الاجتماعية فى مجتمع عصره فحسب ... وانما اهتم بهن باعتبارهن كائنات بشرية ... » .

وهذه أيضا ذريعة دائمة للموعظة والاعتبار فان الطبيعة البشرية فى المرأة والرجل عرضة للفساد من جانب هذه « الأنانية » التى جنت على

تلك الشخصية المسرحيـــة وتجنى على شخصيات كثيرة مثلهـا فى عالم الواقع ، وليست « هيدا » بالمثل الفريد فيمـا تصوره ابسن من نسـاء الخيال فانه لم يصور ضحية واحدة من ضحاياه الاناث لا تتكرر كل يوم فى انسان حى يصـاب بمثل ما أصيبت به مما جنته على نفسها ومما جناه الناس عليها ، لا فرق بين الطبيعة البشرية فى المرأة . والطبيعة البشرية فى الرجل ، ولا فرق فيها بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب .

عباس محمود العقاد